خاتمة الدراسة والبحث

بعد أن انتهت رحلتنا مع مضمار الدراسات الأدبية الاستشراقية وما أسعفنا من المصادر ذات العلاقة في الدفاع عن موروثنا الثقافي– الشعري بالتحديد او الشعر الجاهلي– والتصدي للأقلام بل العقول التي غالها أن تعترف بكنز العرب الثرّ الذي ما فتئت الدراسات الأكاديمية الحديثة تنتهي منه. وها أنا إذ أقدم دراستي في جانب منه ألا وهو ما جاء في دراسات المستشرقين من آراء ونظريات وأفكار عن القصيدة العربية وعن الشعر الجاهلي، في محاولةٍ ل رفع الحيف الذي قرأته في آراء هؤلاء المستشرقين عن موروثنا الشعري.

لذا لابد أن تكون لهذه الاطلاعات والوقفات على كيفية دراسة هؤلاء المستشرقين للشعر الجاهلي والآراء التي تبلورت لديهم بشأن شعرنا القديم، لابد أن تكون هناك ثمار نؤطرها ببعض النقاط لتكون نتائج تلك الاطلاعات والوقفات.

وقد انصبت نتائج البحث والدراسة الأكاديمية في جانبين: تمثل الجانب الأول في تلك الردود والمراجعات على آراء المستشرقين التي اهتمت بثلاثة محاور:

الأول: حاولتُ رد من ينفي الخيال عن الشعر العربي وعدم قابلية الشاعر البدوي الجاهلي على إعمال خياله وسوقه فنّاً لقصائده وموضوعاته الشعرية وما أبدى من الإبداع الفني والمقدرة المتميزة في مجال الشعر وسبك النصوص وإتحافها بخيال تميز برقي الفكرة والعبارة وسما به إلى مراتب فنيه متقدمة تشهد على ذلك النصوص التي سرقت شواهد على ذلك الخيال لاسيما معلقات الشعر العربي ذات الصيت الأدبي والفني والمميز في تاريخ الشعر العربي فيما تأصلَّ فنّاً لدى الشاعر البدوي الجاهلي وما جاء في تلك القصائد ذات البناء المكتمل من قصص وحكايات أو أساطير، أو التشبيهات التي أخذت من فكر الشاعر الشيء الكثير، ونعني بالذات مشبهات الناقة في رحلة الشاعر، وان كانت متكررة بين تلك القصائد إلا أنّ لكل

شاعر خيالاً يسوقه للولوج إلى تلك المشبهات مضمناً تجاربه الذاتية ومهاراته وإبداعه.

أما المحور الثاني بين تلك الردود والمراجعات فكان ردّاً على من يصف الشعر الجاهلي بالغنائية البحتة وأن الشاعر ينغمس فيه بالذاتية، أو الأنا الفردية، وشعره يمثل وجدانه وأنه لا يعلّق أهمية كبيرة على الماضي. وهنا تظهر الدراسة زيف تلك الآراء، والدراسات التي تناولت الشعر الجاهلي بهذا الوصف، ولكنني قرأتُ وقدمتُ الشواهد التي يكاد يطفح بها الشعر الجاهلي مما يظهر معايشة الشاعر للمحيط من حوله معاينة تامة وما يبين من ظروف شتى لذلك المحيط حتى لنجد الشاعر لا يستطيع الفكاك منها من دون أن يسجلّها، بل نحسه وكأنه هو ذلك الظرف أو مسببه كالذي كان لزهير من شأن بعد انتهاء حرب داحس والغبراء وصورة ذلك الطلل الذي ما عادت صورته أحجاراً صلدة بل رأيناه حياة وولادات لتلك المخلوقات– العين والآرام– حتى في ظعنه رأينا حياة أبهى وهوادج نساء وردية ومياه صافية زرقاء تحطّ عندها تلك النسوة للراحة والاستجمام – على سبيل المثال لا الحصر.

مما يبرز استطاعة الشاعر العربي في تقديم تصوّرات فنيه كشفت عن رؤيته وموقفه من الحياة والموت– على السواء– وغير ذلك. وقد استطاع أن يتعامل مع الأشياء التي استحضرها في شعره تعاملاً إنسانياً عميق الدلالات والأبعاد، وألقى من ظلال فنّه على مشاهد القصيدة المكتملة الشيء الكثير، وكأننا نقرأ معه قصصاً لا قصةً واحدة ميزت مقاطع قصيدته بأسلوب قصصي واضح، تبرز قدرة فائقة لدى الشاعر في النفاذ إلى جوهر الأشياء التي يتعامل معها.

أما المحور الثالث فهو فيما يتعلق بوحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية والذي أثبتنا فيه محاولات هؤلاء المستشرقين عبثاً النيل منه وتقطيع القصيدة العربية إلى موضوعات شتى لا رابط تنظم فيه غير الوزن والقافية.

أمّا الجانب الثاني الذي أوصلتني إليه دراستي ما كان متمثلاً في ردّ فكرة النحل والوضع في الشعر العربي بل ردّ نظرية الشك في صحة الشعر الجاهلي التي جاء بها المستشرق "مرجليوث" وردّ من انساق في ضلال هذه النظرية، واتبع خطاه إتباعاً قاده إلى نفي أن يكون هناك شعر جاهلي، ونفي ما قدّمه طه حسين بهذا الصّدد.

ويبقى شعرنا العربي معيناً ثرّاً لا ينضب وخالداً خلود الموت والحياة. عسى أن أكون وفقتُ في مسعاي العلمي وعسى أن تأخذ هذه الأطروحة مكانها العلمي في صدور طلبة العلم قبل سطورها وقبل رفوف المكتبات وآخر دعوانا أنْ الحمد الله ربّ العالمين وسلام على المرسلين.